

القسم الأول فى النصرانية اضطهاد العلم والمدنية فى النصرانية

(قال الأستاذ الحكيم)

ذكرت الجامعة فى الجزء الثامن من السنة الثالثة فى سياق الكلام على ما جرى لابن رشد أن للناس آراء فى : هل الدين المسيحى أوسع صدرًا فى احتماله مجاورة العلم والفلسفة ، أو أن الدين الإسلامى هو الأرحب خلقًا والأوسع حلقًا من الدين المسيحى فى قبول أهل النظر فى الكون إذا نزلوا بداره . ولاذوا بجواره ، وذكرت للقائلين بتسامح الدين المسيحى مع العلم وأهله دون الدين الإسلامى أن فولتير وديدرو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر ، وابن رشد لم يقل شيئًا سوى أنه قرر ما قال أرسطو وأوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ومع ذلك أمين وبصق على وجهه . وللقائلين بسعة حلم الإسلام أن الإسلام لم يحكم بإحراق أحد لمجرد الزيغ فى عقيدته ، وكم حكمت المسيحية بذلك !

ثم جعلت أهل الرأى الأول آخر من يتكلم وقالت : "فيردُ عليهم الأولون بقولهم : هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط ، أم مع القريب والغريب معًا ؟ ثم ، ألا تذكرون الحروب والفتن التى قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية فأضعفت أمتهم

وفرقت كلمتهم، فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة للإنسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لأمة“
ا هـ.

ثم قالت الجامعة: إنها لا تفصل بين القولين. ولكنها فصلت فيهما فصلين الأول في قولها: ”إنا نرى أن السلطة المدنية في الإسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع: لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معاً، وبناءً على ذلك فإن التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية. فإن الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلاً بديعاً مهّد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتعدن الحقيقي وذلك بكلمة واحدة: ”أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله“.

وبناءً على ذلك: فإن السلطة المدنية في هذه الطريقة إذا تركت للسلطة الدينية مجالاً للضغط على حرية الأفراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلاً عن قتلهم، وسقى الأرض بدمائهم البريئة، فإنها تجنى جناية هائلة على الإنسانية. وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك إذا بدا منها نقص، ولو كان هذا النقص أخذ شقيقتها، لأنه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام. والفصل الثاني في قولها: ”إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي ولذلك نما غرسها في تربة أوروبا وأينع وأثمر التعدن الحديث. ولكنهما لم يتمكننا من التغلب على الاضطهاد الإسلامي، وفي ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً“ اهـ

الجواب الإجمالى عن شبهة الجامعة

وإنى أعجل فى الجواب بما يلاقى هذين الحكمين إجمالاً، أما الأول فإن كان الإنجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة، فالقرآن قد أطلق القيد عن كل رأى بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة، قال فى سورة البقرة آية ٢٥٦: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّسُلُ مِنَ اللَّهِ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٥٦، وقال فى سورة الكهف آية ٢٩: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

وأما الثانى فأسأل الجامعة فى جوابه: أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون؟ وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو وروسو وأمثالهم، وكيف ساغ لها أن تقول ما تقول، وهى فى أرض مصر. ومصر بلاد إسلامية وحالها كما ترى؟ فإذا أرادت شاهداً على حال المسيحية والعلم، فلتنظر بنظرها اليوم على أسبانيا، ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم، يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مثنتين فى مدارس المسيحيين من جزويت وفريير وأميركان وهى مدارس دينية، خصوصاً مدارس الجزويت، فهل يمكننى أن أجد طالباً واحداً مسيحياً فى مدرسة دينية إسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أى ملة؟.. لا نجد إلا قليلاً منهم فى مدارس الحكومة لعلمهم أنها مدارس رسمية لم يقدّموا عليها على الدين، فهل سمع أن والدًا اضطهد لأنه

بعث بولده إلى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون؟ ألا يعد هذا من تسامح الإسلام مع العلم اليوم؟^(١)

لولا أن موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة إلى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة أن يوجد في بلاده طائفتان تعد إحداهما بالألوف وتزعم كل منهما أن لها نسبة إلى الإسلام وهي تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ولا تقول بفرض من فروض المعلومة منه بالضرورة. وأجمع فقهاء الأمة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة لا تؤكل ذبائح أفرادهما. ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات. وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم. ومن العلماء من قال لا تقبل توبته. وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والإسلام في أوج القوة. دخلوا في حكم الأتراك وهم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكهم وكانت عساكرهم على أسوار فيينا. كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسرؤا عقيدة تناقض عقيدتهم قد ظهروا بأعمال تضاهى أعمالهم وهم جيرانهم وتحت أيديهم وفي مكننتهم محوهم، ومع ذلك عاشوا إلى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين. وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء، فهل عهدٌ مثل ذلك عن المسيحيين؟

غير أن موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه وأراني أضفت فيه بكلمتي المجملة. ولكن لا يكفي لبيان ما عرضت به الجامعة في قولها (١) مثله اشتراك المسلمين في الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى في الجرائد الإسلامية إلا نادراً.

”هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أو مع القريب والغريب
إلخ“ ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به فى حكمها إلا تفصيل تعرض فيه
حالة الدينين مع العلم تحت نظر القارئ على وجه يمكن معه الحكم عن
فهم، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم .

الجواب التفصيلى عن شبهة الجامعة

أرى الجامعة جاءت فى كلامها بأربعة أمور أتى بها على حسب
ترتيب النسق فى تعبيرها :

الأول: أن المسلمين قد تسامحوا لأهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم
من أرباب الأديان الأخرى.

الثانى: أن من الطوائف الإسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب
الاعتقادات الدينية.

الثالث: أن طبيعة الدين الإسلامى تأبى التسامح مع العلم وطبيعة
الدين المسيحى تيسر لأهله التسامح مع العلم.

الرابع: أن إيناع ثمر المدنية الحديثة إنما تمتع به الأوروبيون ببركة
التسامح الدينى المسيحى.

فلا بد لى من الكلام على كل واحد من هذه الأمور الأربعة . وأبتدئ
منها بالثانى لقلة الكلام عليه.

نفى القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد

لم يُسمع فى تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والأشاعرة، مع الاختلاف العظيم بينهما. ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة. كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها. نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج كما وقع من القرامطة وغيرهم وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف فى العقائد. وإنما أشعلتها الآراء السياسية فى طريقة حكم الأمة، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة. وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة وهى بالسياسة أشبه بل هى أصل السياسة.

نعم وقعت حروب فى الأزمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة وهى ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين ولكن يتسنى للباحث بأدنى نظر أن يعرف أنها كانت حروباً سياسية ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف فى العقيدة وبين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين. أما الحروب الداخلية التى حدثت بعد استقرار الخلافة فى بنى العباس وأضعفت الأمة وفرقت الكلمة فهى حروب منشأها طمع الحكام وفساد أهوائهم وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم وارتخاء حبل التمسك به فى أيديهم. وأكبر داء دخل على المسلمين فى همهم وعقولهم إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجبهة على حكومتهم.

أقول: (الجهلة) وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الإسلام ولم يكن لعقائده تمكُّن من قلوبهم، ولو رزق الله المسلمين حاكمًا يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين. وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ذاك لآخرتهم وهذا لدنياهم وساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم.

ما لنا وللحكام نعرض لهم؟ الذى على أن أقول ولا أخشى منازعًا: إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد أو على تركها. على أن هذا الأمر الذى جاءت به الجامعة، وألجأتنا إلى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرّة. لأن الكلام فى التسامح الدينى مع العلم، لا فى تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة إذا أوجزنا ما استطعنا، هل أذكرها بما كان يقع فى القسطنطينية من سفك الدماء بين الأرثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين؟ هل أذكرها بحادثة برتملى سنتهليل التى سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانت وأخذوهم فى بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالاً وأطفالاً. بماذا أذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التى اسود لها لباس الإنسانية. وتسلبت لحدوثها البشرية؟ هل يمكن لأحد أن يروى حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف فى العقيدة بهما عظم الاختلاف.

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

ثم أرجع إلى الأمر الأول من الأمور الأربعة: لأن الكلام عليه أقل منه على الأمر الثالث، وإننى لا أستدل على رعاية الإسلام للحكماء من الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم، وإنما أرجع فى جميع ما أذكر إلى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين وأذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم ما لم يبلغه غيرهم.

قال المستر دراير أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الأمريكان: "إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام، ورقوهم إلى المناصب فى الدولة حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه" (هو يوحنا بن ماسويه الشهير) وقال فى موضع آخر: "كانت إدارة المدارس مفوضة مع نبل الرأى وسعة الفكر من الخلفاء إلى النسطوريين تارة وإلى اليهود تارة أخرى، لم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذى ولد فيه بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة".

قال الخليفة العباسى الأكبر المأمون: "إن الحكماء هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده، لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة وهم ضياء العالم وهم واضعو قوانينه ولولاهم لسقط العالم فى الجهل والبربرية".

وقال فى موضع آخر: "إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبى أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين".

ولست فى حاجة إلى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس وأقاموا من المراصد وما حشدوا من الكتب إلى المكاتب؛ لأن هذا خارج عن بحثنا الآن، وسيرد عليك شىء منه فيما بعد.



طائفة من الحكماء والعلماء الذين حفظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالخطوة عند الخلفاء جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابورى طبيب المنصور كان فيلسوفاً كبيراً علت منزلته عند المنصور؛ لأنه كانت له زوجة عجوز لا تُستهى فأشفق عليه المنصور وأنفذ إليه بثلاث جوار حسان فردّهن، وقال: إن دينى لا يسمح لى بأن أتزوج غير زوجتى ما دامت حية. فأعلى مكانته حتى على وزرائه. ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج إليه ماشياً يسأل عن حاله فاستأذنه الحكيم فى رجوعه إلى بلد ليدفن مع آبائه فعرض عليه الإسلام ليدخل الجنة. فقال: رضيت أن أكون مع آبائى فى جنة أو نار. فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقى المشهور بالإمساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله إذا مات فى الطريق إلى مدافن آبائه كما طلب، ثم سألهم عن خلفه عنده فأشار إلى عيسى بن شهلاثا أحد تلامذته فأخذ المنصور مكان جيورجيس فطلق يؤذى القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة ليناىل منهم رغائبه فشرع الخليفة بذلك فطرده.

وممن حظى عند المنصور نوبخت المنجم وولده أبو سهل وكانا فارسيين على مذهب الفرس ثم كانت ذرية سلسلة لأبى سهل. وكانوا جميعاً منجمين لهم شهرة فى علوم الكواكب فائقة.

وممن حظى بالمكانة العليا عند الخليفة المهدى: تيوفيل بن توما النصرانى المنجم، وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان، وله كتب فى التاريخ جليلة ونقل كتاب أميروس إلى السريانية بأفصح عبارة.

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة: بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصرانى السريانى. ولده الرشيد ترجمة الكتب القديمة طبية وغيرها وخدم الرشيد ومن بعده إلى المتوكل، وكان يعقد فى داره مجلساً للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع فى بيت للمذاكرة فى العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما يجتمع فى بيت يوحنا بن ماسويه. وممن علا قدره فى زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون أقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة.

كذلك ارتفع شأن سهل بن سابور، وسابور ابنه وكانا نصرانيين وولى سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور.

وكان سلمويه بن بنان النصرانى طبيباً عند المعتصم ولما مات جزع عليه جزعاً شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوماً فأجلسه بجانبه وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق فأخذ المتوكل يحادثه يعبث بالفق حتى وصل إلى النيفق (هو ما اتسع من الثوب) ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل: بماذا تعلمون أن الموسوس (المصاب بخبل فى عقله) يحتاج إلى

الشدة؟ فقال بختيشوع: إذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى النيفق شدناه فضحك المتوكل حتى استلقى.

وفى أيام المتوكل اشتهر حنين بن إسحق النصراني العبادى وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره وامتحن المتوكل صدقه فظهرت له عزيمة لا تغلّ، فأقطعه إقطاعات واسعة وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة فى زمن المأمون وهو فتى؛ فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه وزن ما يترجم ذهباً وكانت بينه وبين الطيفورى النصراني محاسدة أفضت إلى طلب الحكم على حنين فى مجلس الأساقفة بالحرّم من الكنيسة فمات غمّاً لاضطهاد أهل طائفته له مع عزّته وعلو قدره عند الخليفة وهذا الطيفورى أيضاً كان من المقربين عند الخلفاء.

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة فى زمنه أيام خلافة الراضى: متى بن يونس المنطقى النصراني النسطورى كان مفنناً فى جميع العلوم العقلية أخذ عنه أبو نصر الفارابى وانتهت إليه الرياسة فى بغداد وكان من أهل دير قنى ونشأ فى مدرسة مارمارى وقرأ على روفائيل و بنيامين الراهبين اليعقوبيين.

ومن المقربين عند الخليفة: قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الإسلام وهو النصراني. طلبه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة ثم يحيى بن عدى بن حميد بن زكريا المنطقى انتهت إليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكيمية فى وقته. وقرأ على متى ابن يونس وعلى أبى نصر الفارابى.

ومنهم أبو الفرج الطبيب فيلسوف عالم، قالوا: كان كاتب الجاثليق ومتميزاً فى النصارى ببغداد وكان يقرئ صناعة الطب فى بیمارستان

العضدى وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه.

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت ابن قرة الحراني الصابئ من طائفة الصابئين المعروفة، وتربى في بيت محمد ابن موسى بن شاعر الفلكي المشهور وبلغ في علوم الفلسفة مبلغاً لم يدانه فيه غيره. وله تأليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات وبلغ عند المعتزدة مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه، وولّد ثابت هذا سنة إحدى عشرة ومئتين بحران ثم كان ابنه إبراهيم وسان على قدم أبيهما. ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قرة. وكان ثابت وإبراهيم وسان صابئين ولهم من المنزلة ما علمت ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة. ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الإسلام، ولم يرض عليهم بالرعاية والاحترام، هل تريد أن أتمم الكلام بذكر كثير من فلاسفة الإسلام المسلمين الذين نالوا أسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك، هل أنا في حاجة إلى ذكر فيلسوف الإسلام أبي سيف يعقوب الكندي وهو بصرى الأصل؟!

أين الأمير إسحاق الذي كان أميراً للمهدى والرشيد على الكوفة وهو من ذرية الأشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عالماً بالطب والفلسفة والهيئة والحساب والموسيقى واشتغل بالترجمة. كما اشتغل غيره بها فترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده أحمد هل أنا في حاجة إلى ذكر بنى موسى بن شاعر محمد وأحمد والحسن

الذين اشتغلوا فى مساحة الكرة الأرضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزللة عند الأمراء والخلفاء؟ أذكر ابن سينا ومنزلته فى قومه ووصوله إلى مسند الوزارة عند شمس الدولة؟ أم أذكر الفارابى وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان.

لا ريب أن أبا العلاء المعرى يصلح أن يكون رجلاً ممن تعنى الجامعة بنشر تراجمهم وقد قال ما لم يقل بمثله فولتير وروسو، وقد مات مع ذلك على فراشه وقبره اليوم مزار يُرَحَّل إليه فى بلده.

أظن أنه يسهل بعد سرد ما عددناه أن يعرف قراء الجامعة أن الإسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد وهو ميزان احترام العلماء للعلم، ويسهل على أن ألتمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قيل: إنها حدثت للدين وما حدثت له. بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء أو جهالة عمياء أو تأريث بعض السفهاء، لا أطيل خوف الإملال وانتقل الآن إلى الأمر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين، وهو أهم مما سبق ومما سيلحق.

طبيعة الدين المسيحى وأصوله

نَحْوِد

ظننت الجامعة أن الدين المسيحى فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ، ولذلك كان فى طبيعته التسامح ، أما الدين الإسلامى فمن أصوله أن السلطان ملك وخليفة دينى وذلك مما يصعب معه التسامح فى رأيها . ليس هذا بكافٍ فى بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادهما للتسامح مع العلم أو مع أية عقيدة تخالفها بل لا بد من بيان أركان الدين وأهم أصوله التى ترجع إليها جميع الفروع . وعنهما تصدر الآثار الحقيقية . عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحّصاً مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو مُحَدَّثَاتِهِم التى ربما تكون جاءتهم من دين آخر ، فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين ، ومن تلقوه على سذاجته التى ورد بها من صاحب الدين نفسه . وإننى أوجز القول فى إيراد الأصول الأولى التى وردت فى الأناجيل المعروفة الآن فى أيدي المسيحيين وجاءت فى كلام أئمتهم الأولين . ثم إيراد ما جر إليه الأخذ بتلك الأصول بحكم طبيعة الدين .

الأصل الأول للنصرانية الخوارق

أول أصل قام عليه الدين المسيحى وأقوى عماد له هو خوارق العادات ، تقرأ الأناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلاً على صدقه إلا ما كان

يصنع من الخوارق وعددها فى الأناجيل يطول شرحه : ثم إنه جعل ذلك دليلاً على صحة الدين لمن يأتى بعده فجعل لأصحابه ذلك كما تراه فى الإصحاح العاشر من إنجيل متى وغيره ، وإذا تتبعنا جميع ما قال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات ، ولا يخفى أن خارق العادة هو الأمر الذى يصدر مخالفاً لشرائع الكون ونواميسه ، فإذا ساء أن يكون ذلك لكل من علا كعبه فى الدين : لم يبقَ عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص .

زاد الإنجيل على هذا أن الإيمان ولو كان مثل حبة خردل كافٍ فى خرق نواميس الكون كما قال فى الإصحاح السابع عشر من متى : (فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك ، فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم) وفى الحادى عشر من مرقس : (٢٣) لأنى الحق أقول لكم : إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر ، ولا يشك فى قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون ، فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم : كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم) .

فكل بحث يودى إلى أن للكون شرائع ثابتة ، وأن للعلل والشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكاماً فى معلولاتها أو ما شرطت فيه أو ما تسبب عنها أو ما استحال وجوده لوجودها كان مضاداً لهذا الأصل فى أى زمن . وقد كان كل علم من علوم الأكوان لا بد فيه من هذا البحث فكل علم مضاد لهذا الأصل ، ثم إن صاحب الاعتقاد بهذا الأصل لا يحتاج

إلى البحث فى الأسباب والمسببات . لأن اعتقاده فى الشئ أن يكون وإرادته لأن يكون كافيان فى حصوله فهو فى غنى عن العلم، والعلم عدو لما يعتقد، فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه فى سلطانه .

الأصل الثانى للنصرانية سلطة الرؤساء

وبعد هذا الأصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التى منحت للرؤساء على الرؤسسين فى عقائدهم وما تكنه ضمائرهم، وقد أحكم هذه السلطة ما ورد فى ١٦-١٩ من إنجيل متى : (أعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات)، وفى ١٨-١٨ منه : (الحق أقول لكم، كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء، وكل ما تحلونّه على الأرض يكون محلولاً فى السماء).

فإذا قال الرئيس الكهنوتى لشخص : إنه ليس مسيحياً صار كذلك . وإذا قال : إنه مسيحى فاز بها فليس المعتقد حراً فى اعتقاده يتصرف فى معارفه كما يرشده عقله بل عينا قلبه مشدودتان بشفتى رئيسه : فإذا اهتزت نفسه إلى بحث أوقفها قابض على تلك السلطة . وهذا الأصل إن نازع فيه بعض النصرارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرناً طوالاً .

الأصل الثالث للنصرانية ترك الدنيا

وبعد هذين الأصلين أصل ثالث، وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة تجد هذا الأصل فى الأناجيل وفى أعمال الرسل وكلما قرأت فى

الكتب الأولى عثرت به ، وتجد الأوامر الصادرة بالانقطاع إلى الملكوت من عالم الملك صريحة فى الإصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من إنجيل متى فما جاء فى السادس : (لا تقدرّون أن تخدموا الله والمال ٢٥ ؛ لذلك أقول لكم : لا تهتمّوا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس (إلى أن قال) ٣٣ ولكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزداد لكم ٣٤ فلا تهتمّوا للغد : لأن الغد يهتم بما لنفسه يكفى اليوم شره ، وقال فى التاسع عشر : ٢٣ الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات ٢٤ وأقول لكم . إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله) وفى العاشر : (٩ لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ١٠ ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصاً ، إلخ).

وحت على الرهبانية وترك الزواج وفى ذلك قطع النسل البشرى قال فى (١٩ من متى) : (يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل) ثم إن ملكوت السموات قد نيط أمره بالإيمان المجرد عن النظر فى الأكوان . فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الأصل من النظر فى أى علم ، والعلم لا دخل له فى شئون الآخرة والدنيا قد حرمت عليه ، لا ريب أن همه يكون فى الصلاة وصرف القلب بكليته إلى العبادة دون سواها وليس الفكر فى الخليفة من العبادة عنده . فإن عبادة الإنجيل ليست شيئاً سوى الإيمان والصلاة.

الأصل الرابع للنصرانية الإيمان بغير المعقول

وبعد هذه الأصول أصل رابع . وهو عند عامة المسيحيين أصل الأصول لا يختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا بروتستانت ، وهو أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها وأن من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به قال القديس أنسيلم : (يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت) فليس الإيمان وهو الوسيلة الفردة إلى النجاة في حاجة إلى نظر العقل والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره ، وقول القديس : (ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت) نوع من التفصيل على النزعة البشرية إلى الفهم وعلى الميل الفطري إلى تصور ما يتعلق به الاعتقاد وإلا فمجرد الإيمان كافٍ في الخلاص ، ثم الويل كل الويل لطالب الفهم إذا أدى اجتهاده إلى شيء يخالف ما تعلق به إيمانه ، فكان معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلى به نفسه على إيمانه بغير المفهوم .

الأصل الخامس للنصرانية أن الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد

ثم ينضم إلى الأصول الأربعة أصل خامس ، وهو أن الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوى على كل ما يحتاجه البشر إلى علمه ، سواء كان متعلقاً بالاعتقادات الدينية والآداب النفسية والأعمال

البدنية مما يؤدي إلى نيل السعادة في الملكوت الأعلى . أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الإنساني أن يتمتع بها قال تيرتوليان - وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل أن تعرض عليه البدع الكثيرة - : (إن عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية . ودليل صحة هذه الكتب قِدْمُهَا . وكونها أقدم من كتاب أميروس . وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين . وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها . والزمن ناصر الحقيقة ، ثم تحقق النبوءات التي وردت فيها) ثم قال : (إن أساس كل علم عندهم هو الكتاب المقدس . وتقاليد الكنيسة ، وأن الله لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية إلى الدين فقط . بل عللنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون : فالكتاب المقدس يحتوى من العرفان على المقدار الذى قدر للبشر أن ينالوه من جميع ما جاء فى الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وما فيها . وتاريخ الأمم مما يجب تسليمه مهما ضارب العقل أو خالف شاهد الحس ، فعلى الناس أن يؤمنوا به أولاً ، ثم يجتهدوا ثانياً فى عمل أنفسهم على فهمه . أى على تسليمه أيضاً كما ترى ، وقال بعض فضلائهم : إنه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس .

الأصل السادس للنصرانية التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين

ينظم تلك الأصول كلها أصل سادس وهو آخرها فيما أرى . ذلك الأصل هو الذى ورد فى الإصحاح العاشر من إنجيل متى وهو : (٣٤ لا تظنوا

أنى جئت لألقى سلامًا على الأرض ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا ٣٥
فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها
٣٦ وأعداء الإنسان أهل بيته) وقد صرح فى عدة مواضع من الإنجيل
أن الإخلال بشىء من محبة المسيح أو بالانقياد إلى جميع ما أوصى به
موجب للهلاك، وإن كان قد جاء فى مواضع كثيرة أن الإيمان وحده
كاف فى الخلاص غير أن روح الشدة التى جاءت فى قوله: (لا تظنوا
أنى جئت لألقى سلامًا إلخ) هى التى بقى أثرها فى نفوس الأولين من
المعتقدين بالدين المسيحى وعفت على آثار ما كان يصح أن تستشعره
النفوس من بعض الوصايا الأخر.



نتائج هذه الأصول وأثارها

من هنا أعرض المسيحيون الأولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل
النظر فيه إظهارًا للغنى بالإيمان والعبادة عن كل شىء سواهما. وحجروا
على همم النفوس أن تنهض إلا إلى الدعوة إلى ذلك الإيمان وتلك العبادة
ووسائل الدعوة هى الإيمان والعبادة كذلك. فإذا نزع العقول إلى علم شىء
من العالم وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم وحصروا العلم بين دفتها
استغناءً بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عباراته وليس يسوغ لكل
ذى عقل فهمه بل إنما يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفًا من الزيغ عن
الإيمان السليم (البروتستانت رأوا أنه يجوز تفسير الكتاب لغير الكنيسة).

ثم إن إلقاء السيف ووضع التفريق بين الأقارب والأحبة إنما جاء حافظاً لذلك كله فإذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمى إلى معارضة شيء من أمور الإيمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر، ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة، كما أفهمه المسيح بعمله على حسب ما ورد في الإنجيل فقد قيل له: ٤٧ (أمك وإخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك ٤٨ فأجاب وقال للقاتل له: من هي أمي ومن هم إختوتي ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي وإختوتي) ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحدد عن شيء من معتقده، ولا يخفى أن الشيء يكون بذرة ثم نباتاً ثم شجراً فانظر إلى ما صار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة.

وقر في نفوس المسيحيين أن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة أن: "الجهالة أم التقوى" (وكثير من أهل الأديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يجرون على هذه القاعدة ببركة ما ورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحسروا التعليم في الأديار ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة إلا ما كان دعوة إلى الصلاح وتقدير الإيمان على وجه ظاهر وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره، ظهرت ذات الذنب التي تنسب إلى هالي في سنة ١٦٨٢ فاضطربت لظهورها أوروبا ولجأوا إلى البابا واستجاروا به فأجارهم وطردها من الجو فولّت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد إلا بعد خمس وسبعين سنة!!

لم يكن يسمح لأحد أن يبدي رأياً يخالف صريح ما في الكتاب وعندما أظهر بلاج رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم أي إن الحيوانات كان

يدركها الموت قبل أن يحظى آدم بالأكل من الشجرة قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الجدل والجلاد إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد بذلك، يقول المؤرخ: وهكذا غُذِّ الاعتقاد بأن الموت كان يزور الأحياء قبل آدم جريمة على الملك.

أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالإسكندرية على عهد جول قيصر ثم إن تيوفيل بطريك الإسكندرية انتحل أدنى الأسباب لإثارة ثورة في المدينة لإتلاف ما تبقى في مكتبة البطالسة بعضه بالإحراق وبعضه بالتبديد، قال أورو سيوس المؤرخ: إنه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد أن نال تيوفيل الأمر الإمبراطوري بإتلافها بنحو عشرين سنة. ثم جاء بعد تيوفيل ابن أخته سيريل، وكان خطيباً مفوهاً له على الشعب سلطان بفصاحته، وكان في الإسكندرية بنت تسمى هيبارتي الرياضية تشغل بالعلوم والفلسفة وكان يجتمع إليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية، وكان لا يخلو مجلسها من البحث في أمور آخر خصوصاً في هذه المسائل الثلاث: (من أنا، وإلى أين أذهب، وماذا يمكنني أن أعلم).

فلم يحتمل ذلك القديس سيريل مع أن البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق وهي سائرة إلى دار ندوتها وجردوها من ثيابها وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقى منها ألقى في النار، يقول المؤرخ راوى هذه القصة: ولم يسأل سيريل عما صنع بهيبارتي ولم تنظر الحكومة

الرومانية فيما وقع عليها، ولعل ذلك كان أول ما تقررت تلك القاعدة:
"الغاية تشفع للوسيلة".

ما من عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع
فيها فريق إلا وقد سالت لها الدماء فليراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر
مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عندما أريد تقرير عبادة
العذراء واتخاذها لله أمًا.

وكان ذلك في طبيعة الدين: أن من لم يتبع المسيح فهو هالك والهالك
لا يستحق الحياة، ألم تر في الإصحاح الخامس من الأعمال إلى قصة
الرجل الذى باع جميع ما عنده وعندما جاء إلى بطرس أعطاه الثمن
وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه فاطلع بطرس على حقيقة الأمر ووبخ
الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ثم جاء امرأته
وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنهه فوبخها بطرس وأخبرها
بموت زوجها فماتت هي أيضاً . فإذا كان الله يسلب الحياة جزاء على
اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه لم يقدمه هدية للرب فكيف تكون
الحياة من حقه إذا خالف خلفاء الله فى الأرض ونابذهم فيما يعتقدون.
قال البابا أنوسان الثالث عند الكلام فى مصادرة الذين يخالفون العقيدة
الكاثوليكية: (لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة وترك
الحياة لهم من وإحسان) فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن عذاه
إلى أولادهم وعذ ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضرباً من الإحسان
عليهم؛ لأنه لا حق لهم فى أن يعيشوا وقد جحد آبائهم.

مقاومة النصرانية للعلم

لا أجد فى التاريخ ذكرًا للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية فى مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده إلا فى أثناء المنازعات الدينية التى كان يفصل فيها تارة بسطان الملوك وأخرى بجمع المجامع وثالثة بسفك الدماء فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض. وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون، وما كان يقع بنى ملوك أوروبا من التسافك فى الدماء بإغراء رؤساء الكنيسة، وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ وليس من موضوعنا الكلام فيه.

ولكن أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر فى أوروبا بعد ظهور الإسلام واستقرار سلطانه فى بلاد الأندلس واحتكاك الأوروبيين بالمسلمين فى الحروب الصليبية.

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين إلى بلادهم وحملوا إلى الناس أخبارًا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص. وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة، فلما قفل الغزاة إلى ديارهم قضوا على قومهم أن أعدائهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة نوى ود ووفاء وفضل مجاملة.

ثم كان الخليفة الحَكَم الثانى جعل من بلاد الأندلس فردوسًا كما قال الفيلسوف الأميركانى، وكان اليهود والنصارى يتلاقون فى تلك

البلاد تحت ظلال الأمن والحرية، قال بطرس المحترم الشهير: إنه رأى كثيراً من العلماء يأتون إلى تلك البلاد لتلقى العلوم الفلكية حتى من بلاد إنكلترا وأولئك الذين يسعون إلى طلب العلوم من أى بلاد جاءوا كانوا يجدون فيها رحباً وسعة وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعاً للكتب نسخاً وتذهيباً وتجليّاد، إلخ ما قال.

ثم انتشرت صناعة الورق التى اخترعها العرب ثم اكتشفت المطبعة وسهل على الناس أن ينشروا آراءهم بعد أن تنبّهت أفكارهم بما جلب إليهم رسل العلم الذين حملوه إليهم عن أهالى أسبانيا ومن حملوه مما جاورهم ثم انساب إلى العقول شىء مما سماه الأوربيون فلسفة ابن رشد، عند ذلك اهتمت المسيحية بالأمر وأخذت تحارب كل ما يظهر على ألسنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما فى الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة.

قال دى رومنيش: إن قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد بل هى من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء . فجلب إلى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها ألقيت فى النار. وقيل فى علة الحكم: إنه أراد الصلح بين كنيسة روما وإنكلترا. وأى ذنب أعظم من هذا الصلح؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء.

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

أنشئت المراقبة على المطبوعات وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذى عين للمراقبة وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئاً لم يعرض على المراقب أو ينشر شيئاً لم يأذن المراقب بنشره، وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شىء يؤمى إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كانت الحكومة العثمانية على ما تنشر بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجرى عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين) أنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عند ما خيف ظهورهما بسعى تلامذة ابن رشد خصوصاً فى جنوب فرنسا وإيطاليا أنشئت هذه المحكمة الغربية بطلب الراهب توركاندا.

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام فى مدة ثمانى عشرة سنة - من سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٤٩٩ حكمت على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشق بعد التشهير فشهرزوا وشنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت كل تورااة بالعبرية.

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة المقدسة؟ وسيلة واحدة هى أن يحبس المتهم وتجرى عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب

المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه . وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ . قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يعلن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد . وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر فى كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة . لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شىء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره .

اشتدت محكمة التفتيش فى طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعادة إلى كسبه ، ونيط بها كشف البدعة فيها مهما اشتد خفاؤها - فى المدن وفى البيوت . فى السرايب . فى الأنفاق . فى المخازن . فى المطابخ ، فى المغارات فى الغابات . فى الحقول فوفت بما كلفت به مع البهجة والسرور اللاتقيين بأصحاب الغيرة على الدين عملاً بالقول الجليل " ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً " كان يؤخذ الرهبان فى صوامعهم . والقسوس فى كنائسهم . والأشراف فى قصورهم ، والتجار بين بضائعهم . والصناع فى مصانعهم . والعامّة فى بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، وأينما ثقفوا . ويوقفون أمام المحكمة وتصدر الحكام عليهم يوم اتهامهم .

قرر مجمع لاتران أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس فى الكنيسة (أى الاعتراف بالذنوب طلباً لغفرانها) تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه فى بيته وما يظهر فى أعماله بين أهله . فإذا وجد القسيس متلقى الاعتراف شيئاً

من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره إلى المحكمة فينقضُ شهابُ التهمة عليه . فإذا سأل عن الشاهد الذي عول عليه في إتهامه لا يجاب وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من أهله حتى يعترف أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوروبا ما خيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه . وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية إليه . وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : (يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه).

حكمت هذه المحكمة من نشأتها سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة منهم نحو مائتي ألف أحرقوا بالنار أحياء.



اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوروبا على زعم القسوس . وكان ابن رشد أستاذًا يتعلم عنده كثير من اليهود وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه ثم هو مع ذلك مسلم صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معاً فصدر الأمر في ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان وعلى أي حال كان يجب أن يترك بلاد أسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجع منهم إلى هذه

البلاد عوقب بالقتل وأبيع لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول بشرط أن لا يأخذوا فى الثمن ذهباً ولا فضة وإنما يأخذون الأثمان عروضاً وحوالات، ومن ذا الذى يشتري اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن؟ (يعنى أن أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذى يتم فى يوليو)، وصدر أمر توركماندو أن لا يساعدهم أحد من سكان أسبانيا فى أمر من أمورهم، وهكذا خرج اليهود تاركين كل ما يملكون ناجين بأرواحهم على أنه لا نجاة لكثير منها فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر.

وفى فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها - من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد أسبانيا قبل شهر (نيسان) وأبيع لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذى وضع لليهود. ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهو أن لا يذهبوا فى طريق يؤدى إلى بلاد إسلامية ومن خالف فجزاؤه القتل، فهؤلاء الساكنين نفوا جميعاً إلى القتل إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع، فالموت ملاقيهم بالتعب مع العرى والجوع.

ألا يعجب القارئ إذا رأى أن برونو يحرق بالنار حياً بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لأنه قال بقول الصوفية فى وحدة الوجود وقال: إن هذا العالم يحتوى على عوالم كثيرة. الحمد لله رب العالمين.

ظهر القول بكروية الأرض - ذلك الأمر الذى عرفه المسلمون وصار رأياً لهم فى أول خلافة بنى العباس ولم تتحرك له شعرة فى بدن - فأحدث اضطراباً شديداً فى عالم النصرانية ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث فى شأنه.

هل يصدق القارئ أن ما قصده كريستوفر كولمبس من السفر في المحيط الأطلنطي لعله يكتشف أرضاً جديدة كان من الأمور التي اهتمت لها الكنيسة وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين، ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزيستوم وأوغستين وجيروم وغريغوار وبازيل وإنبراوز وعلى رسائل الرسل والأنجيل والنبوءات والزبور والأسفار الخمسة ولم ينتج هذا العرض شيئاً، ولكن ساعده على ما قصد بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم. قال كريستوفر كولمبس بأن الذى أوحى إليه هذا القصد النبيل هى كتب ابن رشد، من هنا نفهم لم قامت له الكنيسة وقعدت؟

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل الجليل (السلطة للقسوس والطاعة على العامة) كل رأى لم يصدر عن ذلك المصدر الدينى الذى يربط ويحل فى الأرض والسماء فهو باطل تجب مقاومته بكل ما يستطيع، لهذا حكم على غاليلي الذى ذهب إلى أن حركة الكواكب هى على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم.

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد: هل تدري ماذا حصل من المقاومة لإدخال الحقن تحت الجلد بعبادة المرض؟ اكتشف هذه الطريقة الطبية عند المسلمين فى الأستانة ثم نقلتها إلى أوروبا امرأة تسمى مارى مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا فى استعمالها واحتجج فى تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك إنكلترا، وعادت هذه الشدة فى المعارضة عندما اكتشفت طريقة تطعيم الجدري.

مقاومة تسهيل الولادة: أى مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق. اكتشاف أميركاني رأت حضرات

القسوس فيه أنه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين؛ إذ جاء في الإصحاح الثالث منه: (وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حملك بالوجع تلدين أولاداً).

مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد: نشر البابا منشوراً في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية أو جواز أن يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة أو يعتقد بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه. وفي منشور له سنة ١٨٦٨ أن المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم، وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ودعا الروم الأرثوذكس والبروتستانت إلى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذه الوجهة.

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل أستاذ في إحدى الكليات رأى رأياً لا يروق للحزب الكاثوليكي فحرمة البابا وطلب من الحكومة عزله وكانت إحدى العضلات السياسية غير أن عزيمة بسمارك نصرت مدينة القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة وأبقت الأستاذ وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية.

مقاومة الجمعيات العلمية والكتب: لا أذكر الجمعيات العلمية (الأكاديميات) التي ألغيت والاجتماعات التي عطلت لا شيء كان فيها سوى هداية البشر إلى منافعهم وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري ومن الطريق العقلي من غير استشارة المسيطر الإلهي وهو الكنيسة، ولكن أذكر شيئاً واحداً وهو أن الكردينال

أكسيمينيس أحرق في غرناطة ثمانية آلاف كتاب بخط القلم فيها كثير من ترجمة الكتب المعول عليها عند علماء أوروبا لذلك العهد.



البروتستانت أو الإصلاح

ربما يقول قائل: إن هذا الذى ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ولكن قد قام فى المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين إلى أصل الكتب المقدسة ويبيحون لعامة أهل الدين أن ينظروا فيها ويفهموها وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول. ومن عهد ظهور الإصلاح والرجوع إلى أصول الدين الأولى بزغت شمس العلم بالمغرب وبسط للعلم بساط التسامح. وذلك لا يمكن أن يكون إلا جرياً مع طبيعة الدين.

لا أذكر فى الجواب عن ذلك إلا ما ذكر البروتستانت أنفسهم فى تاريخ الإصلاح: استمرت عقوبة الموت قانوناً يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة وقد أمر كلغان^(١) بإحراق سيرفيت فى جنيف، لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحى كان قد دخل عليه شىء من الابتداع قبل مجمع نيقية، وكان يقول: إن روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها، فكان جزاؤه على هذا أن شوى على النار حتى مات وهكذا أحرق فاييتى فى تموز سنة ١٦٢٩.

كان لوتير أشد الناس إنكاراً على من ينظر فى فلسفة أرسطو وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب. ونحو ذلك

(١) كلغان هو الزعيم الثانى للبروتستانت ولوتر الأول.

من الألقاب التي لا بأس بها إذا صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه !! وكان كلفان أقل شتماً للفيلسوف من لوتير لكنه لم يكن أحسن ظناً به ولا أوسع صدرًا لمن يطلع على شيء من كتبه، وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف (المعلم الأول) فتأمل الفرق بين الفريقين !!

قالوا: البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة وبإبطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية وإبطال عبادة الصور. ولكنهم لم يغيروا شيئاً من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشرى كما أنها منبع نور الإيمان بالدين الإلهي. وأنه لا يباح للعقل أن ينساق في نظره إلى ما يخالف شيئاً مما حوته وأنه لا حاجة إلى شيء من العلم وراء ما ورد فيها، وبالجمله إنهم لم يبطلوا أصلاً من الأصول الستة التي تقدمت إلا أنهم قالوا بمنع غلو الرؤساء في سلطتهم المبنية على الأصل الثاني في سابق قولنا.

قالوا: ولهذا لم يكن مذهب الإصلاح أخف وطأة على العلم ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك؛ لأن كلا المذهبين يرجع إلى طبيعة واحدة (وهي القائمة على الأصول الستة) ولم يكن لأهل النظر العقلي جزاء في كلا الملتين إلا القتل وسفك الدم.

لو كنت ممن يحب الجدل في الدين لعددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحي ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية واضطهادات الكنيسة (ما أهون الدم على من يمثل في عبادته

أكل الدم وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الإنساني من الخطيئة إنما كان بسفك الدم البري، على يد المعتدى الأثيم) لكنى فى بحثى هذا لا أريد أن أستعمل قوة الخيال، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال، وإنما آتى بما هو حكاية حال، ليس للناظر فيها مقال.



الفصل بين السلطتين فى المسيحية

بقى علينا الكلام فيما جعلته الجامعة أساساً للفصل بين السلطتين الدينية والملكية وبه كانت طبيعة الدين المسيحى أدعى إلى التسامح مع العلم فى نظرها، لو سلمنا أن فى تلك العبارة معنى الفصل كما قالت الجامعة، وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية فماذا يفيد الفصل إذا كان دين الملك نفسه يقضى عليه بمعاداة العلم؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب الملك؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قرباناً لسلطان عقيدته. هب أن مصالح الملك تكون دائماً أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الإيمان والوجدان وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين: إحداهما تحل وترتبط فى الأرض وفى السماء فيما هو من خاصة الدين والأخرى تحل وترتبط فى الأرض فيما هو من خصائص الدنيا، أفلا يكون هذا الفصل قاضياً بتنازع السلطتين وطلب كل واحدة منهما التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معاً؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف

فى أبدانهم وأموالهم بل وفى عقولهم أيدى الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفانى إذا كان ذلك التصرف مخالفاً لما جاء فى كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسنتهم فإذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفقتصر الأخرى؟ هذا هو الذى وقع فى العالم المسيحى منذ ظهرت سلطة الدين.

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله ثم تمد نفوذها بتلك القوة إلى أعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء والملك لا قوة له إلا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية؟ لا يتأتى للملك أن يغالب تلك القوة إلا بعد أن يتناول من الوسائل ما لا يعد لإضعاف سلطتها. نعم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت الأبدان يحكمها الملك يمكنها أن تأتى أعمالها على حدة مستقلة عن الأرواح التى تحيا بها والأرواح كذلك تأتى أعمالها بدون الأبدان التى تحمل قواها.

ثم هل هذا هو معنى قول الإنجيل؟ القصة على ما جاء فى الإنجيل أن بعض المرائين أراد أن يتسقط المسيح ليأخذ عليه ما ينم به فسأله: أيجوز أن نعطي جزية لقيصر؟ فأجاب لم تجربوني اثتوني بدينار لأنظر إليه. فأتوه بدينار فقال: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له لقيصر، فقال: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله فمعناه الظاهر من سياق القصة أن صاحب السكة التى تتعاملون بها إذا ضرب عليكم أن تدفعوا منها شيئاً فادفعوه له. أما قلوبكم وعقولكم وجميع ما هو من الله وعليه طابع صنعته فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً. والعلم ليس مما عليه طابع قيصر

بل عليه طابع الله . فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة
الروحانية الدينية ، فأى تسامح مع العلم فى هذا .



اعتقاد المسلمين فى المسيح والمسيحية

هذا الذى عرضناه من طبيعة الدين المسيحى وأوردناه من مشاربه فيما
بعد نشأته وما وقع من حوادث مع طلاب العلم ورواد المعارف فى كل
زمن إلى ما يقرب من أيامنا هذه كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذى كتبوه
عن أنفسهم ومن نصوص كتبهم الدينية التى يتوكأون عليها فيما ذكرنا
من سيرتهم وأعمالهم .

أما رأى وأرى أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين فى المسيح عليه
السلام ودينه فهو على غير ما رآه القارئ . إنا نعتقد أن المسيح روح
الله وكلمته ورسوله إلى بنى إسرائيل بُعِثَ مصداقاً لما بين يديه من
التوراة وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد فى شؤون معاشهم
ومعادهم ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التى وهبهم الله تعالى إياها ،
بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها ولا يشكر حق الشكر إلا باستعمالها
جميعها فيما أعدها الله له . والعقل من أجل القوى بل هو قوة القوى
الإنسانية وعمادها والكون جميعه هو صحيفته التى ينظر فيها وكتابه
الذى يتلوه ، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه .
وكل ما صح عندنا عن السيد المسيح لا يخالف شيء منه هذا الذى

نعتقد، فإن صح عنه شيء يكون في ظاهره مخالفة لهذه الأصول أمكننا تأويله حتى يرجع معناه إليها أو وكننا الأمر فيه إلى الله وقلنا "لا علم لنا إلا ما علمتنا"؟

الدين دين الله وهو دين واحد في الأولين والآخرين لا تختلف إلا صوره ومظاهره، وأما روحه وحقيقته ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير - إيمان بالله وحده وإخلاص له في العبادة ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا، وهذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية، ونعتقد أن دين الإسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول. ومن أهم وظائفه إزالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم إلى الاتفاق والإخاء والمودة والائتلاف وهذا ما عمل عليه المسلمون قرناً بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالإسلام.

فإذا سأل سائل: إذا كان ذلك الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الأوربيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده في معاداته، فما هذا الانقلاب الذي حصل في أوروبا. وما هذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها؟.. فجوابه في الكلام على الأمر الرابع مما ذكرت الجامعة، وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الإسلامي وما يليق أن يكون له مع العلم وما انجر إليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة. وما عرض عليها مما سترها وحال بينها وبين أثرها في أخريات الأيام؟ وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى.